من صميم الحياة :

وحي الشيطان ... !

للأستاذ علي الطنطاوي

[على أرباب الأقلام أن يوقظوا النيام وليس عليهم أن يجبروا الموتى . .] علي

وهذه (أيضاً) قصة من قصص الحياة ، (ألفتُها) و (مثلتُها) على مسرحها ، وهي قصة واقعة أعرف زمانها ومكانها وأشخاصها ، ولكني لن أصف شيئاً من ذلك ولا أشير إليه ، لأني لا أريد أن أسوء أحداً ولا أن أعرّض به ، إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وما في التعريض بالناس نفع للقراء ولا لي وما أكتب تاريخاً ، إنما أسرد قصة ...

* * *

وقعت هذه القصة في بلد من بلدان هذا الشرق العربي الذي يقف اليوم حائراً في مفترق الطرق ، لا يدري أين يسلك ولا إلى أين يتّجه ، والذي يعيش عيشة تحكي الثوب المرقّع ، فيها شيء من الجاهلية وشيء من العصور الاسلامية الأولى ، وشيء من عصر الانحطاط ، وشيء من فرنسا ومن انكلترا ومن روسيا ولكنه لا يكاد يأخذ من كل (شيء) إلا أسوأ ما فيه .

وكان مما أخذ أهل ذلك البلد عن أمريكا ، أنهم عملوا من بناتهم في المدارس مثل المجندات فيها ، وما جندت أمريكا المجندات في هذه الحرب إلا (للترفيه ...) عن الجنود ، فممّن نريد أن (ترفه ...) نحن ؟ !

وانتشرت هذه البدعة في مدارس البنات حتى بلغت هذه المدرسة ، وأراد القائمون عليها إعداد هذا اللباس العسكري للطالبات ، ولم يكن بدّ من الاستعانة بخياط فبحثوا حتى وجدوا خياطاً أخبروهم أنه رجل أمين صاحب خلق متين ، وجاءوا به ليقيس أجساد الطالبات ، وجعلوا يدخلونهنّ عليه واحدة بعد واحدة ، وهو ماضٍ في عمله ، يغضّ من بصره إلا عما لا بدّ من رؤيته ، ويترفق في جسّه ومسّه ، إبقاء على طيب الذكر ، وحرصاً على صناعته ، ولعنة الله عليها من صناعة ، أن يخيط الرجل ثياب النساء ، ولعن كل من يرضى بها . ولبث كذلك حتى دخلت هذه الفتاة ، وكانت بنت ست عشرة كاعباً غرّة مكلثمة[1] بيضاء ذات غضاضة وبضاضة وخَفَر ، من رآها رأى ملامح طفلة حلوة فتانة بطهرها وجمالها ، في وجه خَوْد عذراء ، على جسم راقصة مِفَنّنة ، في ثياب عروس ... فلما رآها وقام للقياس ... ومدّ يده إليها أحسّ بقلبه يجب وجبانا منكراً ، وبأنفاسه تتلاحق حتى كاد يدركه البُهر ، ولم يكن قد أصابه ذلك من قبل ، وقد (طالما) رأى فتيات أجمل منها وأبهى وقن أمامه بالغلائل ومسّهن وقاسهنّ ، فما صنعن به مثل هذا ، وما كان تقياً ولا عفيفاً ، ولا يمنهن هذه المهنة رجل ويخيط للنساء ويبقى عفيفاً ، ولا تمشي إليه لتخيط عنده عفيفة ولا شريفة ولكنه لم يكن مشهوراً بالفجور ، ولم يكن ماجناً مستهتراً فمن هنا عدّه أهل هذه الأيام ... أميناً صاحب خلق متين !

وأحسّ بالفتور في أعصابه ، ولكنه تماسك وتحامل على نفسه حتى أتمّ القياس ، وتكلم فعجب في نفسه أن وجد صوته يتهدج ويخرج مبحوحاً مخنوقاً ، وما عهده كذلك ... وخاف أن يفتضح فاستأذن في الانصراف ، وخرج وفي نفسه عواطف متضاربة : فهو يرجو العودة إليها ويريد الفرار منها ، وهو قد سعد بلقائها ولكنه يتمنى أن لم يكن عرفها . ولما وصل إلى دكانه لم يستطع أن يبقى فيه ، وأحسّ كأنه قد افتقد شيئاً ، وأنه يحيا في فراغ مخيف ، وكان له ، (وتلك من لعنات هذه الصناعة) عاملات وكان يأنس بهن ويلهو ، فأعرض اليوم عنهن ولم ينظر إليهن ، ووجد تراخياً في بدنه وشيئاً مثل الدوار في رأسه ، فترك الدكان وذهب إلى أقرب قهوة إليه ، فألقى بنفسه على كرسيّ فيها وأغمض عينيه وراح يحلم يقظان ، ولم يكن يتخيل الفتاة بلحمها ودمها وجوارحها ، وإنما كان يرى لها صورة غامضة عجيبة فيها كل ما كان يحلم به من ألوان السعادة

(١) من العامي الفصيح ، والعامة تقولها بالتاء بدل الثاء على عادة الشاميين.

وصور الجمال ، ولم يكن يفكر فى (وصالها) إنما كان فى فكره التقديس لها والرغبة فيها والخوف منها والغيرة عليها من عيون الرجال بل من عين الشمس التى تراها !

وهذا هو الحب العذرى ، من النظرة الأولى ، وإن أنكره العلماء ، وأقاموا الأدلة على إبطاله . لقد عشقها وهو لا يعرف اسمها ، ولا دارها ، ولا مطمع له فى الوصول إليها .

* * *

ومرّت الأيام ولا أصف لك كيف مرّت عليه ، وعاد إلى المدرسة ومعه الثياب ليجرّبها على صاحباتها ، ودخلت البنات عليه ، وخلعن أمامه ولبسن ، وتحركن وحركن ... وتكلمن وسمعن ... ولكنه لم يسمع ولم يَرَه ، وكان ينظر إليهن كما ينظر النائم إلى خيالات تجوز به وهو غارق فى لجج الكرى ، وكان فكره معلقاً بتلك وحدها ، وكان يتمنى لرغبته فيها أن تمرّ الدقائق مسرعة حتى يراها ، ويرجو لخوفه منها أن يبطىء الزمان حتى يتهيأ للقائها ... وكان كلما دخلت واحدة اضطرب وخفق قلبه يحسبها هى ... حتى جاءت ...

وكان لطول ما فكر فيها وخلع عليها خياله من سمات الجمال وأحاطها به من التقديس والاكبار ، لايراها فتاة جميلة كالفتيات بل ملكا هبط من سمائه ، أو حوراء من حور الجنان نزلت إلى الأرض ، وكان يقدس كل شعرة منها ، وكان يخشى أن يمسّ طرف ثوبها ، لأنها كانت عنده كالزهرة التى يذبلها اللمس ، فكان يخاف عليها ويرعاها من بعيد ، ويحسّ الرغبة بأن يمرّغ وجهه بتراب قدميها ، وأن يقبل حذاءها ... حماقة من حماقات العشاق ...

ولم تكن البنت قد سفرت من قبل ، أو خالطت الرجال ، فهى لا تزال مستحيية ، فتهيبت أن تجرب الثوب ووقفت ... فأعانها المدرس وأنزل بيده جواربها ، وخلع عنها ثوبها ، وبقيت بـ (الشَّلْحة)[1] ، فلما أبصرها الخياط كذلك ، ورأى المدرس وهو يعينها على نزع الثوب عنها ، اهتز كأنما مشى فيه تيار كهربائى ، واجتمع فى قلبه دمه كله ، فخفق حتى كاد يخرج من صدره ، وشحب وجهه حتى صار بلون قشرة الليمون ، ثم دارت به الدنيا ، ولم يعد يشعر بشىء ...

لقد أغمى عليه فحملوه إلى دكانه ، ولم يعد إلى المدرسة أبداً .

* * *

وهام الرجل بها ، وزهد فى كل امرأة من أجلها ، ولم يبق له فى الحياة مطمح سواها ، فرحمه جماعة من جيرانه ، وذهبوا يخطبونها له من أبيها ، وأخذوه معهم ، فلما عرف ما جاؤوا له ، أباه عليهم وردّهم ، فخرج الشاب وقد ضاقت به الدنيا ، ولم يجد سبيلا يسلكه إلا سبيل الفجور ... فأوغل فيه ، وسخر ماله وشبابه لافساد الفتيات ، فأفسد منهن العشرات ، وهنّ يتهاوين عليه كما تتهاوى الفراشات فى النار . ومرّت الأيام ، وسمع أن البنت قد خطبت ، وعقد العقد ، وزفّت إلى بعلها .

هنالك أيس الرجل فانقلب شيطانا ، واستحال ذلك الحب فى نفسه بغضاً ، وكذلك يكون البغض الشديد من علامات الحب الشديد ، وأقسم ليدمرن حياتها وحياة أهلها ، ولو دفع ثمن ذلك ماله كله وحياته ، واستوحى الشيطان الأكبر ، ورفاق السوء ...

وهبط عليه (وحى الشيطان) !

فاستعان بمن يعرف من الفتيات من رفيقات البنت ، وأغراهنّ بالمال وبالمتع أن يأتينه بها إلى داره مرة واحدة ، وحلف لهن بالأيمان المؤكدة أنه لا يمسّ جسدها .

واحتلن عليها وزعمن لها أن رفيقة لهن مريضة فهن يحببن أن يزرنها معها ، ورضيت وضربت لهن موعداً ، فأخبرن به الرجل فأعد عدة الانتقام .

* * *

ولما وصلن إلى الدار تأخرن عنها حتى صارت من داخل ، ثم رجعن وأغلق هو الباب دونهن وبقيت وحدها ، ونظرت فاذا الدار خالية ففزعت وركضت نحو الباب ، فاعترضها الرجل وأخرج مسدساً ضخما ، وهددها بأنه قاتلها به إن لم تخلع ثيابها كلها ، وحلف لها إنها إن فعلت لا يمسها بيده ، ولا يدنو منها ، ويدعها تمضى بسلام ، ونظرت الفتاة فاذا هو على صورة الوحش

(١) عامية يقابلها فى الفصيح الحجول أو الاساور .

الهائج ، أو الشيطان الغضبان ؛ فارتاعت وجعلت ترجع حتى التصقت بالجدار ، وهو يسلط عليها بريق عينيه وفوهة مسدسه ، فلم تجد مناصاً من الامتثال .

فألقت خمارها عن رأسها ، ثم نزعت معطفها بيد ترتجف من الرعب ، ووقفت ، فاستحثها ، فانفجرت تبكي وتنشج ، وتتوسل إليه :

— أرجوك ، أنا في عرضك ، أبوس رجليك ... ارحمني استرني ، ماذا عملت لك ، إني امرأة شريفة ولي زوج ...

فزأر في وجهها :

— بسّ !

وأوهمها أنه سيطلق المسدس ، ثم رماه وراءه واستلّ سكينا طويلة أدناها منها حتى وجدت حدّها على عنقها ، وقال :

— اخلعي !

فخلعت الثوب ، فقال :

— اخلعي كل شيء !

فعادت إلى توسلها وبكائها . وعاد إلى قسوته وتهديده .

فرمت (الشلحة) ، والقميص ، وبقيت بذلك (الكلسون) الذي يشبه خرقة بين رجليها ، وصُدْرة الثديين ، فصرخ بها حتى نزعتها ، ووقفت أمامه كما ولدت أمها ...

ومرت لحظة ، ثم أعرض عنها ، وقال لها : البسي واذهبي .

وصدق وعده فلم يمسسها .

فلما خرجت رفع ستارة ، وقال للمصور :

— هل أخذت الصورة ؟

— قال : نعم ، أخذت لها ثلاث صور !

* * *

خرجت وما تصدق أنها نجت ، فلما بلغت دارها سقطت مريضة ... وكانت هذه الواقعة كابوسا على صدرها ، ما تفارقها ذكراها ، في يقظتها ولا في كراها ، وهجرت رفيقاتها جميعاً رفيقات السوء ، واتخذت لها ملاءة ساترة ... ولكنها أخطأت فلم تنبيء بما جرى لها زوجها ، ولم تصدقه خبرها .

ثم كان الفصل الأخير من الرواية :

وصل الخبيث حبله بحبل الزوج ، وتزلف إليه حتى جمعته به سهرة ، فأحضر معه طائفة من أصحابه الفساق ، وكان قد بيّت معهم أمراً ، فلما احتدم الحديث وحميت السهرة ، وزالت الكلفة وجاءت الالفة ، أدار الخبيث الحديث حتى وجهه وجهة الحب والغرام ، وانطلق يقص قصة لفقها ، فلما انتهى منها ، أخرج الصورة وقال :

— وهذه صورة صاحبتي فيها ، انظروا إلى جسمها وجمالها !

ودفعها إليهم فتناقلتها الأيدي ، وكلما رآها واحد من أصحابه قال :

— وأنا أعرف هذه الفتاة ومعي صورة أخرى لها .

حتى وصلت إلى يد الزوج ، فنظر فيها ، فأحسّ كأن لطمة انحطت على وجهه ، فأظلمت منها عيناه ولم يعد يبصر ما حوله .

لقد كانت صورة زوجته !

ودمّر بيتان ، وعوقب بريئان ، وبقي المجرم الأول بلا عقاب ، وهو الفرد الذي جاءنا تقليده بهذه البدعة المخزية ، بنظام (الرشدات) !

علي الطنطاوي

صدر اليوم :

كتب وشخصيات

دراسات نقدية للشخصيات الأدبية المعاصرة في مصر والبلاد العربية

دراسات تبرز سماتهم الفنية ، وخصائصهم الأدبية ، وطرائقهم في التفكير والتعبير . على ضوء كتاب لكل شخصية أو أكثر من كتاب

دراسات يجتمع فيها الكتاب والشعراء والقصاصون والباحثون ، ويلتقي فيها الشيوخ والكهول والشبان .

دراسات عن :

عبد القادر حمزة . شوقي العقاد . المازني . طه حسين . هيكل . الزيات . ميخائيل نعيمة . شفيق جبري . شفيق غربال . أنطون الجميل . عزيز أباظة . توفيق الحكيم . محمد كرد علي . طه الراوي . محمود تيمور . خليل هنداوي علي أدهم . عبد الرحمن صدقي . عبد الحليم عباس . يحيى حقي . حسين فوزي . إبراهيم أمين الشواربي . عبد المنعم خلاف . نجيب محفوظ . عادل كامل . عبد الحميد جودة السحار . وبجانبها فصول في أصول النقد . ونفحات من فارس بين الشيرازي والخيام

بقلم الأستاذ سيد قطب

ثمنه ٢٥ قرشاً عدا البريد

يطلب من مجلة الرسالة والمكاتب الشهيرة